المؤتمر الدولي عن الرحمة في الإسلام
The International Conference on Mercy in Islam
قسم الدراسات الإسلامية - كلية التربية

مقصد الرحمة
وأثره
في حياة المسلم

إعداد:
حسين محمد المحيميد

المقدمة

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، كما يحب ربنا ويرضى، حمدًا يوافي نعمه، ويكافئ مزيده، يارب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، سبحانك لا أحصى ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك، والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين، والمبعوث رحمة للعالمين، نبينا وقدوتنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، ومن اتبعه واهتدى بهديه إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن معرفة مقاصد الشريعة لها أهمية عظيمة وفوائد جليلة، ففيها يعرف الإطار العام للشريعة، ويكون عند الباحث والمجتهد والفقيه تصورًا كاملًا عن الإسلام وتعاليمه، وتتكون لديه النظرة الكلية الإجمالية لأحكامه وفروعه، وكذلك تعين الباحث على الترجيح بين الأحكام المتعارضة في الأدلة أو معرفة الأحكام للقضايا الجديدة.

وقد كان علم المقاصد علمًا ممزوجًا بعلم أصول الفقه، إلى أن جاء العلامة الشاطبي، الذي مثل كتابه الموافقات نقلة نوعية في تاريخ علم المقاصد، فكتابه وإن كان ضمن كتابه الكبير الموافقات إلا أنه يصلح أن يكون كتابًا مستقلًّا له مقدمته وخاتمته، كما يمثل الأستاذ الطاهر انبعاث علم المقاصد بعد رقدة طويلة، وبعده كثرت الدراسات والبحوث حول المقاصد وأثرها، وتمثل دراسة

بعض المقاصد الجزئية أو الكلية وأثرها في الأحكام، نقلة نوعية في تاريخ المقاصد، ومن هنا كان الدافع لهذا البحث، سعيًا في إثراء هذا الجانب بمزيد من البحوث، فمعرفة مقصد الرحمة وأثرها في حياة المسلم له أهميته البالغة، لأن الرحمة هي السمة العامة للدين الإسلامي، ولنبيه ﷺ الذي وصفه الله ﷻ رحمة للعالمين ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء]، وفي هذا البحث سنكشف عن أثر هذا المقصد العظيم في الحياة الإسلامية.

مشكلة البحث:

تتحدد مشكلة البحث في إبراز العلاقة بين مقصد الرحمة، وهو مقصد عظيم، جاءت به الشريعة الإسلامية، وهي سمة من سمات النظام الإسلامي، وأثر هذا المقصد في شتى ضروب الحياة، في الحياة السياسية، وفي الحياة الاقتصادية، أو في تعامل المسلمين مع غيرهم.

أهداف البحث:

تهدف الدراسة إلى الكشف عن أثر مقصد الرحمة في حياة المسلم من خلال الإجابة على الأسئلة التالية:

١. هل للرحمة أثر في الحياة السياسية للمسلمين؟

٢. هل لمقصد الرحمة أثر أو آثار في الحياة الاقتصادية؟

٣. هل لمقصد الرحمة في الإسلام أثر في تعامل المسلمين مع غيرهم؟

٤. هل لمقصد الرحمة من أثر في دائرة الإفتاء؟

أسباب اختيار البحث:

لهذا البحث عدة أسباب، دعت الباحث للخوض فيه، ومنها:

١. العناية الشخصية للباحث بعلم المقاصد الشرعية.

٢. أهمية علم مقاصد الشريعة من بين العلوم الإسلامية، وحاجتنا إليه وحاجتنا إلى بناء الأحكام بنظرة مقاصدية تأخذ في الحسبان العصر الذي نعيش فيه.

٣. محاولة لإخراج علم المقاصد من الجانب الفردي الضيق إلى سعة المجتمع والدولة، وإعادة قراءته وصياغته في توازن وعمق، بما يتناسب مع التقدم الحاصل في القرن الخامس عشر الهجري الواحد والعشرين الميلادي.

٤. تحتل الدراسات التي تعد الشريعة الإسلامية نظامًا كاملًا، استوعب كل متطلبات الفرد المادية والروحية، مكانة مهمة في الأوساط الأكاديمية، وهذا الذي دفع الباحث إلى إثراء هذا الجانب والمساهمة فيه، وخاصة خلق الرحمة الذي يعد الميزة الكبرى للإسلام.

٥. محاولة لإبراز ما لمقصد الرحمة من أثر كبير في حياة المسلم، وخاصة الحياة السياسية منها، التي يخيل لبعضهم أنها بعيدة عن الأخلاق وعن الرحمة.

منهج الدراسة:

إن طبيعة هذا البحث تقتضي تداخل عدد من المناهج، ولذلك فإن الباحث جمع في هذه الدراسة بين الاستقراء والتحليل للنصوص المستقرأة، وكذلك المقارنة إن اقتضى ذلك الأمر:

١. أما المنهج الاستقرائي، ففي تتبع النصوص الشرعية وجمع النصوص ذات العلاقة بموضوع البحث.

٢. المنهج التحليلي، وذلك بتحليل النصوص المستقرأة، والوقوف على المعاني الدقيقة التي تحملها.

٣. المنهج المقارن، وذلك بالمقارنة بين نصوص المذاهب الشرعية المختلفة، وكذلك المذاهب الفكرية، كلما اقتضى الأمر ذلك.

خطة الدراسة:

وقد جاءت الدراسة مؤلفة من مقدمة، وتمهيد، ومبحثين، وخاتمة.

المقدمة: وتتضمن أهمية الدراسة، ومشكلتها، وأهدافها، وأسبابها، ومنهجها.

التمهيد: وقد تضمن:

أولًا: تعريف المقاصد لغة واصطلاحًا.

ثانيًا: تعريف الرحمة لغة واصطلاحًا.

المبحث الأول: في مقاصدية الرحمة.

المطلب الأول: مقصد الرحمة في القرآن الكريم.

المطلب الثاني: مقصد الرحمة في السنة النبوية.

المبحث الثاني: أثر مقصد الرحمة في حياة المسلم.

المطلب الأول: أثر مقصد الرحمة في الحياة السياسية.

المطلب الثاني: أثر مقصد الرحمة في الحياة الاقتصادية.

المطلب الثالث: أثر مقصد الرحمة في تعامل المسلمين مع غيرهم.

المطلب الرابع: أثر مقصد الرحمة في دائرة الإفتاء.

الخاتمة.

أهم المصادر والمراجع.

التمهيد

أولًا: تعريف المقاصد لغة واصطلاحًا:

١. معنى المقاصد لغة:

المقاصد جمع مَقصِد بكسر الصاد وفتحها، وهو جمع مقصور على السماع وتعود كلمة (المقاصد) إلى الفعل الثلاثي (قَصَدَ)، والمقصد هو مصدر ميمي واسم المكان منه، وهو على وزن (مَفْعِل)، وهذا الوزن يستعمل حقيقة في الزمان والمكان والمصدر، فيكون لفظ (المقصد) إما في المصدر وهو القصد، أو في المكان المقصود، أو في زمان القصد، أو في الغاية المقصودة، مثل مقصدي من فعل كذا مساعدته، ونستطيع أن نجمع معاني الفعل قصد، وروده في كلام العرب على النحو التالي:

الأول: القصد: العدل والوسط بين الطرفين، جاء في القرآن الكريم ﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ﴾ [لقمان:١٩] وكذلك ﴿وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ﴾ [فاطر:٣٢] وفي الحديث «القصد القصد تبلغوا»[(١)] أي عليكم بالتوسط في الأمور في القول والفعل، والقصْدُ في الشيء: خلاف الإفراط[(٢)].

الثاني: الاعتماد والأَمُّ وطلب الشيء وإتيانه، كما جاء في الحديث

(١) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، ٩٨/٨، تح: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبدالباقي) ط١/ ١٤٢٢هـ.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، تح: خليل مأمون شيحا، بيروت – لبنان، دار المعرفة، ط ١، ٢٠٠١ م، ٢/ ٤٥٨ لسان العرب، ابن منظور، تصحيح أمين عبدالوهاب، ومحمد الصادق، بيروت – لبنان، ط ٣/ ١٩٩٩ م، ١١/ ١٨٠.

«فقصدت لعثمان حتى خرج إلى الصلاة»[١]، يعني طلبته بعينه وإليه، وقصدك أي تجاهك[٢].

الثالث: استقامة الطريق، قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النحل:٩] أي: على الله الطريق المستقيم، والدعاء إليه بالحجج والبراهين الواضحة[٣]. والقصد من الطريق: المستقيم الذي لا اعوجاج فيه[٤].

الرابع: القرب، يقال بيننا وبين الماء ليلة قاصدة، أي هينة السير، كما جاء في الآية ﴿لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ﴾ [التوبة:٤٢] أي موضعًا قريبًا سهلا[٥].

الخامس: الاعتزام والأم والتوجه، وهذا المعنى هو الذي أرجع إليه علماء اللغة مادة القصد، واعتبروه أصلًا لها[٦].

وهذا المعنى هو المتداول في الكلام كثيرًا وهو المستعمل في كلام الأصوليين والفقهاء[٧].

٢. تعريف المقاصد اصطلاحًا:

إن العلماء السابقين لم يحددوا تعريفًا مضبوطًا جامعًا مانعًا للمقاصد، برغم استعمال لفظ المقاصد في مؤلفاتهم، وربما يعود سبب غياب تعريف

(١) رواه البخاري، كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب عثمان بن عفان أبي عمرو القرشي ﷺ، ٥/١٤.
(٢) لسان العرب، مرجع سابق، ١١/١٧٩؛ المصباح المنير، مرجع سابق، ص ٥٠٤.
(٣) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، ت: أحمد محمد شاكر، ١٧/ ١٧٤، مؤسسة الرسالة، ط١/ ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.
(٤) انظر: لسان العرب، مرجع سابق، ١١/١٧٩.
(٥) جامع البيان، مرجع سابق، ١٤/ ٢٧١.
(٦) تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد بن محمّد، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى الزَّبيدي، ت: مجموعة من المحققين، دار الهداية، د. ط، ٩/٤٣.
(٧) انظر: قواعد المقاصد عند الشاطبي، عبدالرحمن الكيلاني، دار الفكر - دمشق، ط١/ ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، ص ٤٤.

واضح للمقاصد عبر القرون، إلى أن هذا المصطلح هو واضح المعاني عند العلماء ومن حولهم من أهل العلم[١]. وعلى كل لقد حاول كثير من العلماء والباحثين اختيار أحسن تعريف للمقاصد اصطلاحًا، فيعرفها الشيخ أبو حامد الغزالي[٢]: "أما المصلحة فهي عبارة في الأصل عن جلب منفعة ودفع مضرة، ولسنا نعني به ذلك، فإن جلب المنفعة ودفع المضرة مقاصد الخلق، وصلاح الخلق في تحصيل مقاصدهم، لكن نعني بالمصلحة المحافظة على مقصود الشارع، ومقصود الشارع من الخلق خمسة وهو: أن يحفظ عليهم دينهم، ونفسهم وعقلهم ونسلهم ومالهم، فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول فهو مصلحة، وكل ما يفوّت هذه الأصول فهو مفسدة ودفعها مصلحة"[٣] فالإمام الغزالي فرق في تعريفه بين الوضع اللغوي للمصلحة والوضع الشرعي، فهي في الوضع اللغوي عبارة عن جلب المنفعة أو دفع المضرة، وأما في الوضع الشرعي فهي المحافظة على مقصود الشارع من الخلف الكائن في حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال[٤] وعرفها ابن تيمية[٥] بأنها: "الغايات المحمودة في مفعولاته ومأموراته ﷻ، وهي ما تنتهي إليه مفعولاته

(١) مقاصد الشريعة عند ابن تيمية، يوسف أحمد محمد البدوي، دار النفائس، الأردن، ط١/ ٢٠٠٠م، ص٤٥.

(٢) الغَزالي، محمد بن محمد بن محمد الغَزَالي الطوسي، أبو حامد، حجة الإسلام، فيلسوف، متصوف، له نحو مئتى مصنف، رحل إلى نيسابور ثم إلى بغداد فالحجاز فبلاد الشام فمصر، وعاد إلى بلدته، نسبته إلى صناعة الغزل، من كتبه (إحياء علوم الدين)، و(تهافت الفلاسفة) و(الاقتصاد في الاعتقاد) وغيرها كثير توفي سنة ٥٠٥هـ انظر: تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام، شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي تح: الدكتور بشار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط١/ ٢٠٠٣م، ٦٢/١١، الأعلام، مرجع سابق، ٢٢/٧.

(٣) المستصفى، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي تح: محمد عبدالسلام عبدالشافي، دار الكتب العلمية، ط١/ ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، ص ١٧٤.

(٤) انظر: مقاصد الشريعة الإسلامية، زين الدين بن محمد الرماني، دار الغيث للنشر والتوزيع، ط١/١٤١٥هـ، ص٣٠.

(٥) تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، شيخ الإسلام في زمانه وأبرز علمائه، فقيه أصولي ومفتي الدين الحصيف وصاحب الآثار الكبرى في علوم الدين والفكر الإسلامي، تلقى العلم على والده وعلى مشايخ دمشق وظهرت عليه علامات النجابة منذ نعومة أظفاره، كان من أشد مفكري الإسلام نقدا للفلسفة وعلم الكلام بلغت مصنفاته مجلدات ضخمة ومن أهمها مجموع الفتاوى، والفتاوى الكبرى، ودرء تعارض العقل والنقل وغيرها كثير، انظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان البرمكي تح: إحسان عباس، دار صادر - بيروت، ط ١/ ١٩٧١، ٣٨٦/٤.

ومأموراته من العواقب الحميدة، التي تدل على حكمته البالغة"[١]. وعرفها محمد الطاهر بن عاشور[٢] بأنها: "المعاني والحكم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو معظمها، بحيث لا تختص ملاحظتها بالكون في نوع خاص من أحكام الشريعة"[٣]. وربما أستطيع أن أختار كل من تعريف الدكتور وهبة الزحيلي رحمه الله للمقاصد، وهو "المعاني والأهداف الملحوظة للشارع في جميع أحكامه أو معظمها"[٤] أما لماذا رجحت هذا التعريف فلأنه وصف المقاصد بالمعاني، وهذا يشمل المعاني الكلية التي تدور حولها أحكام الشريعة، وما يتفرع عنها من أحكام جزئية، والذي اقتضى أن يشمل هذا اللفظ كلا المعنيين، أنه قد حلي بالألف واللام، التي تفيد الاستغراق، وأيضًا بين التعريف أن الأحكام قد شرعت وسائل لإقامة هذه المقاصد، وأن هذه الأحكام في حقيقتها عبارة عن وسائل، لتحقيق غايات مرسومة من قبل الشارع.

ثانيًا: تعريف الرحمة لغة واصطلاحًا:

١. تعريف الرحمة لغة:

الرحمة من الفعل رحمه يرحمه رحمة، وتدور مادة الفعل (رحم) على معنى الرقة والعطف والرأفة، يقول ابن فارس[٥]: "الراء والحاء والميم

(١) مجموع الفتاوى، أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية الحراني تح: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية ١٤١٦هـ/١٩٩٥م ١٩/٣.

(٢) محمد الطاهر بن عاشور: رئيس المفتين المالكيين بتونس، وشيخ جامع الزيتونة وفروعه بتونس، مولده ووفاته ودراسته بها، وهو من أعضاء المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة، له مصنفات كثيرة، من أشهرها (مقاصد الشريعة الإسلامية) و(أصول النظام الاجتماعي في الإسلام) و(التحرير والتنوير) في تفسير القرآن، توفي سنة ١٣٩٣ هـ انظر: الأعلام، مرجع سابق، ١٧٤/٦.

(٣) مقاصد الشريعة الإسلامية، محمد الطاهر بن عاشور، تحقيق ودراسة محمد الطاهر الميساوي، عمان-الأردن، دار النفائس، ط ٢/ ٢٠٠١ م، ص ٢٥١

(٤) أصول الفقه الإسلامي، د. وهبة الزحيلي، دار الفكر بدمشق، ط٢/ ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م، ١٠٤٥/٢.

(٥) أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازيّ، أبو الحسين، من أئمة اللغة والأدب أصله من قزوين، وأقام مدة في همذان، ثم انتقل إلى الريّ، فتوفي فيها، وإليها نسبته، من تصانيفه (مقاييس اللغة) و(جامع التأويل) في تفسير القرآن، و(النيروز) في نوادر المخطوطات، و(الاتباع والمزاوجة) و(الحماسة المحدثة) و(كتاب الثلاثة) في الكلمات المكونة من ثلاثة حروف متماثلة، وله شعر حسن، توفي سنة ٣٩٥ هـ، انظر: الأعلام، مرجع سابق، ١٩٣/١.

أصل واحد يدل على الرقة والعطف والرأفة. يقال من ذلك رحمه يرحمه، إذا رق له وتعطف عليه"[1]. وقد تطلق الرحمة أيضًا ويراد بها ما تقع به الرحمة، كإطلاق الرحمة على النبوة في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:١٠٥] أي يختص بنبوته[2] وكإطلاقها على الرزق، وبه فسر قوله تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةً﴾ [هود:٩] أي أذقنا الإنسان منا رخاء وسعة في الرزق والعيش[3].

٢. تعريف الرحمة اصطلاحًا:

عرفها الإمام ابن القيم[4] بقوله: "الرحمة صفة تقتضى إيصال المنافع والمصالح إلى العبد، وإن كرهتها نفسه، وشقت عليها. فهذه هى الرحمة الحقيقية، فأرحم الناس بك من شق عليك في إيصال مصالحك، ودفع المضار عنك"[5]. وقال الراغب الأصفهاني[6] في تعريفها: "والرحمة رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم، وقد تستعمل تارة في الرقة المجردة، وتارة في الإحسان المجرد عن الرقة، نحو: رحم الله فلانًا. وإذا وصف به

(١) معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، تح: عبدالسلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، ٤٩٨/٢.

(٢) انظر: تفسير الطبري، مرجع سابق، ٢٥٥/١٥، تاج العروس، مرجع سابق، ٢٢٩/٣٢.

(٣) انظر: تفسير الطبري، مرجع سابق، ٢٥٥/١٥.

(٤) محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزُّرْعي الدمشقيّ، أبو عبدالله، شمس الدين، من أركان الإصلاح الإسلامي، وأحد كبار العلماء، مولده ووفاته في دمشق، تتلمذ على شيخ الإسلام ابن تيمية حتى كان لا يخرج عن شئ من أقواله، بل ينتصر له في جميع ما يصدر عنه، وهو الّذي هذب كتبه ونشر علمه، وسجن معه في قلعة دمشق، كان يحب الكتب كثيرًا حتى إنه جمع منها عددًا عظيما، وألّف تصانيف كثيرةو منها (إعلام الموقعين) و(الطرق الحكمية في السياسة الشرعية) و(شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل) و(كشف الغطاء عن حكم سماع الغناء)، انظر: الأعلام، مرجع سابق، ٥٦/٦.

(٥) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، ابن قيم الجوزية، تح: محمد حامد الفقي، مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٧٤/٢.

(٦) الحسين بن محمد بن المفضل، أبو القاسم الأصفهاني (أو الأصبهاني) المعروف بالراغب: أديب، من الحكماء العلماء. من أهل (أصبهان) سكن بغداد، واشتهر، حتى كان يقرن بالإمام الغزالي، من كتبه (محاضرات الأدباء) مجلدان، و(الذريعة إلى مكارم الشريعة) و(الأخلاق) ويسمى (أخلاق الراغب) و(جامع التفاسير) كبير، طبعت مقدمته، أخذ عنه البيضاوي في تفسيره، و(المفردات في غريب القرآن) و(حل متشابهات القرآن) و(تفصيل النشأتين) في الحكمة وعلم النفس، و(تحقيق البيان) في اللغة والحكمة، وكتاب في (الاعتقاد) و(أفانين البلاغة) توفي سنة ٥٠٢ هـ، انظر: الأعلام، مرجع سابق، ٢٥٥/٢.

الباري فليس يراد به إلا الإحسان المجرد دون الرقة، وعلى هذا روي أن الرحمة من الله إنعام وإفضال، ومن الآدميين رقة وتعطف"[1]. ويقول ابن عاشور أيضًا في تعريفها: "اسم الرحمة موضوع في اللغة العربية لرقة الخاطر وانعطافه نحو حي بحيث تحمل من اتصف بها على الرفق بالمرحوم والإحسان إليه، ودفع الضر عنه، وإعانته على المشاق، فهي من الكيفيات النفسانية، لأنها انفعال، ولتلك الكيفية اندفاع، يحمل صاحبها على أفعال وجودية بقدر استطاعته وعلى قدر قوة انفعاله، فأصل الرحمة من مقولة الانفعال، وآثارها من مقولة الفعل، فإذا وصف موصوف بالرحمة كان معناه حصول الانفعال المذكور في نفسه، وإذا أخبر عنه بأنه رحم غيره فهو على معنى صدر عنه أثر من آثار الرحمة"[2] وعرفها الكفوي[3] فقال: "الرحمة: هي حالة وجدانية تعرض غالبًا لمن به رقة القلب، وتكون مبدأ للانعطاف النفساني الذي هو مبدأ الإحسان، ولما لم يصح وصفه ﷻ بالرحمة لكونها من الكيفيات، وهي أجناس تحتها أنواع، فإما أن يتصف الباري بكل منها وهو محال، أو ببعضها المخصص فيلزم الاحتياج، أو بمخصص فيلزم الترجيح، أو لا يتصف بشيء، وهو المطلوب، لا جرم حمل على المجاز، وهو الإنعام على عباده، فرحمة الله مجاز عن نفس الإنعام، كما أن غضبه مجاز عن إرادة الانتقام"[4].

(١) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان الداوودي، دار القلم الدار الشامية، دمشق بيروت، ط١/١٤١٢هـ، ص ٣٤٧.
(٢) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، سنة، ١٩٨٤، ١/١٦٩.
(٣) أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، صاحب (الكليات) كان من قضاة الأحناف، عاش وولي القضاء في (كفه) بتركيا، وبالقدس، وببغداد، وعاد إلى إستانبول فتوفي بها، ودفن في تربة خالد، وله كتب أخرى بالتركية، توفي سنة: ١٠٩٤ م انظر: الأعلام، مرجع سابق، ٢/٣٨.
(٤) الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، تح: عدنان درويش – محمد المصري، مؤسسة الرسالة – بيروت، ص ٤٧١.

المبحث الأول
في مقاصدية الرحمة

إن الإسلام هو دين الرحمة، وهي رحمة نابعة من الرحمة العظمى، رحمة الله ﷻ التي وسعت كل شيء: القريب والبعيد، المؤمن والكافر، الإنسان والحيوان، والرحمة هي سمة هذا الدين في كل جوانبه، في عقيدته وشريعته، في أخلاقه وعبادته، في معاملاته، وحتى في عقوباته أيضًا، ولكي نتبين مقاصدية الرحمة لابد أن نبحث في مقاصدتيها في كل من القرآن والسنة، فهما المصدران الأساسيان في الإسلام:

المطلب الأول
مقصد الرحمة في القرآن الكريم

لقد اهتم القرآن الكريم بصفة الرحمة اهتمامًا بالغًا، حتى إنه لا تخلو صفحة من صفحاته إلا وفيها بعض آيات تصرح أو تشير إلى موضوع الرحمة الإلهية، ولا أدل على هذا من أن القرآن الكريم جعل الغاية العامة التي بعث بها النبي ﷺ هي الرحمة، فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء] والقرآن الكريم أيضًا جعل شعاره وعنوانه الذي أمر المؤمنين أن يفرحوا من أجله هو الرحمة أيضًا، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧ قُلۡ بِفَضۡلِ

﴿ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٥٨﴾ [يونس] ويخبرنا القرآن أيضًا أنه ﷻ قد كتب الرحمة على نفسه، رحمة عامة بكل الخلق، يقول تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤] يقول القرطبي[١]: "أي أوجب ذلك بخبره الصدق، ووعده الحق، فخوطب العباد على ما يعرفونه من أنه من كتب شيئًا فقد أوجبه على نفسه"[٢] ولا أدل على اعتناء القرآن بهذا المقصد العظيم، وتأكيده له من أنه ورد ذكر (الرحمة) في القرآن الكريم ومشتقاتها، نحو ثلاث مئة وخمس عشرة مرة، بين وروده بصيغة الاسم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:٣٧] وبين وروده بصيغة الفعل كقوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا﴾ [الأعراف:١٤٩].

أما عن معنى (الرحمة) في القرآن الكريم فقد ورد على عدد من المعاني، ومنها:

- الرحمة التي هي (صفة) الله جل وعلا، تثبت له على ما يليق بجلاله وعظمته، من ذلك قوله ﷻ: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [الأعراف:١٥٦]، وقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِ﴾ [الأنعام:١٣٣]، و(الرحمة) كصفة لله تعالى هي الأكثر ورودًا في القرآن الكريم.
- الرحمة بمعنى (الجنة)، من ذلك قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢١٨]، أي: يطمعون أن يرحمهم الله، فيدخلهم جنته بفضل رحمته إياهم[٣].

(١) محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرح الأنصاري الخزرجي الأندلسي، أبو عبدالله، القرطبي: من كبار المفسرين. صالح متعبد. من أهل قرطبة. رحل إلى الشرق واستقر بمنية ابن خصيب (في شمالي أسيوط، بمصر) وتوفي فيها. من كتبه «الجامع لأحكام القرآن عشرون جزءا، يعرف بتفسير القرطبي، و«الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى «وكان ورعا متعبدا، طارحا للتكلف، يمشي بثوب واحد وعلى رأسه طاقية توفي سنة: ٦٧١ هـ، انظر: الأعلام، ٣٢٢/٥.

(٢) تفسير القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤ م، ٤٣٥/٦.

(٣) تفسير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، المحقق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م، ٣١٩/٤.

- الرحمة بمعنى (المطر)، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦٓ﴾ [الأعراف:٥٧]، يقول الإمام الطبري[١]: "و«الرحمة» التي ذكرها جل ثناؤه في هذا الموضع، المطر"[٢].

كما وردت الرحمة بعدد كبير من المعاني في القرآن الكريم[٣]، ربما تتقاطع بأن الأصل في هذه الأشياء كلها هو الرحمة، ولولا الرحمة لما كانت هذه الأشياء.

المطلب الثاني
مقصد الرحمة في السنة النبوية

ليس هناك وصف أجل ولا أعظم، من وصف الله ﷻ لنبيه ﷺ في القرآن الكريم: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨﴾ [التوبة:١٢٨] فقد كان ﷺ أرحم الناس بالناس، مؤمنهم وكافرهم، صغيرهم وكبيرهم، صحيحهم

(١) محمد بن جرير بن يزيد الطبري، أبو جعفر: المؤرخ المفسر الإمام. ولد في آمل طبرستان، واستوطن بغداد وتوفي بها. وعرض عليه القضاء فامتنع، والمظالم فأبى. له (أخبار الرسل والملوك) يعرف بتاريخ الطبري، و(جامع البيان في تفسير القرآن) يعرف بتفسير الطبري، و(جزء في الاعتقاد) و(القراءات) وغير ذلك. وهو من ثقات المؤرخين، وكان مجتهدًا في أحكام الدين لا يقلد أحدًا، بل قلده بعض الناس، وعملوا بأقواله وآرائه. وكان أسمر، أعين، نحيف الجسم، فصيحًا توفي سنة ٣١٠هـ، انظر: الأعلام، ٦٩.

(٢) تفسير الطبري، مرجع سابق، ٤٩٢/١٢.

(٣) وردت الرحمة في القرآن الكريم بمعنى (النبوة)، من ذلك قوله ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:١٠٥]، ووردت بمعنى (القرآن)، من ذلك قوله تعالى: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ [يونس:٥٨] وبمعنى (المطر)، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦٓ﴾ [الأعراف:٥٧]، وبمعنى (النعمة والرزق)، من ذلك قوله ﷻ: ﴿أَوۡ أَرَادَنِى بِرَحۡمَةٍ﴾ [الزمر:٣٨]، وبمعنى (النصر)، من ذلك قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةً﴾ [الأحزاب:١٧] وبمعنى (العطف والمودة)، من ذلك قوله ﷻ: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الفتح:٢٩]، وبمعنى (العصمة)، من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾ [يوسف:٥٣]، وبمعنى (الثواب)، من ذلك قوله ﷻ: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦]، كما وردت أيضًا بعدة معان أخرى.

ومريضهم، بل إن رحمته ﷺ تعدت ذلك إلى الحيوانات أيضًا، وقد أكد النبي ﷺ على مقصد الرحمة، واعتنى به في أقواله، فكان يمدح الرحماء، ومن فيهم هذه الصفة العظيمة، كما ترجم هذه الأقوال إلى أفعال، فكان دائمًا رحيمًا عطوفًا ﷺ، وسوف نتناول مقاصدية الرحمة في السنة في أقواله وأفعاله ﷺ:

أولًا: تأكيد النبي ﷺ على مقصد الرحمة في أقواله:

لقد ثبتت عن النبي ﷺ أحاديث عديدة جدًّا تؤكد على مقصد الرحمة، وأن الرحمة هي من أهم مقاصد الشريعة الإسلامية، ومنها على سبيل المثال:

عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا أهل الأرض: يرحمكم أهل السماء»[1] والمراد بأهل السماء الملائكة، ومعنى رحمتهم لأهل الأرض: دعاؤهم لهم بالرحمة والمغفرة، كما قال تعالى ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى:٥][2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت أبا القسم الصادق المصدوق ﷺ صاحب هذه الحجرة يقول: «لا تنزع الرحمة إلا من شقي»[3] أي لا تسلب الشفقة على خلق الله، ومنهم نفسه، التي هي أولى بالشفقة والمرحمة عليها من غيرها، بل فائدة شفقته على غيره راجعة إليها، لقوله تعالى

(١) رواه الترمذي، أبواب البر والصلة، باب ماجاء في رحمة المسلمين، وقال عنه: حديث حسن صحيح، ٣٨٨/٣، ورواه البيهقي، أيضًا كتاب السير، باب ما على الولي في أمر الجيش، ٧١/٩، ورواه الإمام أحمد من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص، وقال محققه محمد فؤاد عبدالباقي صحيح لغيره، ٣٣/١١.

(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود، ومعه حاشية ابن القيم: تهذيب سنن أبي داود وإيضاح علله ومشكلاته، محمد أشرف بن أمير بن علي بن حيدر، أبو عبدالرحمن، شرف الحق، الصديقي، العظيم آبادي، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٥ هـ، ١٩٥/١٣.

(٣) رواه أبو داود كتاب الآدب، باب في الرحمة، وقال عنه الألباني حسن، ٢٨٦/٤، ورواه الترمذي، أبواب البر والصلة، باب ماجاء في رحمة المسلمين، وقال عنه: حديث حسن صحيح، ٣٨٨/٣، ورواه البيهقي وزاد في آخره ثلاث مرات، ٢٧٨/٨، ورواه الإمام أحمد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وقال عنه المحقق: إسناده على شرط مسلم، ٣٧٨/١٣.

﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [الإسراء:٧] (إلا من شقي) أي كافر أو فاجر يتعب في الدنيا، ويعاقب في العقبى[١].

وعن جرير بن عبدالله قال قال رسول الله ﷺ: «لا يرحم الله من لا يرحم الناس».[٢]

وعن جابر رضي الله عنه أيضًا قال: قال رسول الله ﷺ: «من لا يَرحم لا يُرحم»[٣]. وتقديره من لا يكن من أهل الرحمة فإنه لا يرحم[٤]. وعن أسامة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إنما يرحم الله من عباده الرحماء»[٥].

إلى غيرها من الأحاديث الكثيرة التي امتلأت كتب الحديث بها، تأكيدًا منه ﷺ على هذا المقصد العظيم.

ثانيًا: تأكيده ﷺ على مقصد الرحمة في أفعاله:

لم تبق رحمته ﷺ مجرد تعاليم نظرية ومواعظ ألقاها على الناس لم تلق ترجمة واقعية على الأرض، بل إن النبي ﷺ ترجمها إلى الحياة العملية، والأمثلة على ذلك من سيرته ﷺ كثيرة جدًّا ومنها مثلًا:

أن النبي ﷺ كان دائمًا ما يخاف على أمته من كثرة العبادة، ومع أن الأمر مرغوب به، ومحمود، لكنه ﷺ كان يخشى على أمته من المبالغة في الأمر، لذلك كان كثيرًا ما يعرض عن عمل من الأعمال كان يحبه، لخوفه من أن يفرض على أمته فيشق عليهم.

(١) انظر: عون المعبود، مرجع سابق، ١٣/١٩٦.
(٢) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تبارك وتعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء:١١٠]، ٩/١١٥.
(٣) رواه البخاري، كتاب الآداب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، ٨/١٠.
(٤) انظر: فتح الباري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبدالباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلامة: عبدالعزيز بن عبدالله بن باز، ١٠/٤٢٩.
(٥) رواه البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب قول الله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ [الأنعام:١٠٩]، ٨/١٣٣.

تقول أم المؤمنين عائشة ﵂: «إن كان رسول الله ﷺ ليدع العمل، وهو يحب أن يعمل به خشية أن يعمل به الناس، فيفرض عليهم»[١].

ولذلك كان يقول دائمًا: لولا أن أشق على أمتي لفعلت كذا أو لأمرتهم بكذا، ومن ذلك مثلًا:

قوله ﷺ «لولا أن أشق على أمتي ما قعدت خلف سرية، ولوددت أني أقتل في سبيل الله، ثم أحيا، ثم أقتل، ثم أحيا، ثم أقتل»[٢] وقال أيضًا: «لولا أن أشق على أمتي أو على الناس، لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة»[٣] إلى غيرها الكثير من الأحاديث التي تدل على رحمته ﷺ بأمته، فهذا منهجه ﷺ في كل سيرته العطرة، الرحمة بالأمة والعطف عليها، حتى إن رحمته ﷺ تعدت المؤمنين إلى الكافرين، فقد صح أنه ﷺ زار جاره الكافر عندما مرض[٤] كما تعدت البشر إلى الحيوانات أيضًا، فهو يقرر أنه: «دخلت امرأة النار في هرة ربطتها، فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض»[٥] ويمثل فتح مكة البرهان العملي الواضح على رحمته وعفوه ﷺ، فبعد أن عذبه القوم، وعذبوا المؤمنين في مكة، وبعد أن هجروهم من بلدهم مكة، وبعد أن منعوهم من إقامة دينهم في مكة، بعد هذا كله قال لهم رسول الله ﷺ: «ما ترون أني صانع بكم؟» قالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم. قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»[٦].

(١) رواه أبو داود، باب صلاة الضحى، ٢/٢٨، وقال عنه الألباني: صحيح.
(٢) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب الجهاد من الإيمان، ١/١٦.
(٣) رواه البخاري، كتاب الجمعة، باب السواك يوم الجمعة، ٢/٤.
(٤) انظر: البخاري، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات، هل يصلى عليه، وهل يعرض على الصبي الإسلام، ٢/٩٤.
(٥) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب: خمس من الدواب فواسق، يقتلن في الحرم، ٤/١٣٠.
(٦) رواه البيهقي في السنن الكبرى، جماع أبواب السير، باب فتح مكة حرسها الله ﷻ، ٩/١٩٩.

المبحث الثاني
أثر مقصد الرحمة في حياة المسلم

المطلب الأول
أثر مقصد الرحمة في الحياة السياسية

إن لمقصد الرحمة آثارًا مهمة جدًّا في حياة المسلم عامة، إلا أن لهذا المقصد العظيم آثارًا مهمة جدًّا على الحياة السياسية للمسلمين بشكل خاص، وسنستعرض بعض هذه الآثار باختصار:

١. أثر مقصد الرحمة في اختيار رجال الدولة:

إن لمقصد الرحمة أثره الواضح في اختيار رجال الدولة، سواء أكانوا من مسؤولي الدولة بشكل عام، أم كان الخليفة نفسه، وهذا المعيار وهو الرحمة بالمسلمين أو الرعية بشكل عام، يجب أن يؤخذ بالاعتبار من قبل القائمين على اختيار رجال الدولة، وهذا لا يتنافى مع الصلابة في الحق[1]، وهذا الأمر واضح في سيرته ﷺ، فهو الرحمة المهداة، وربما موقف اختيار أبي بكر ليصلي بالناس وما به من إشارة واضحة للمسلمين أنه الخليفة بعد رسول الله ﷺ من أهم المواقف التي تدلنا على هذا الأمر، وقد اعترضت ابنته سيدتنا عائشة على هذا الأمر لكون أبي بكر رجل رقيق القلب جدًّا، فلا يستطيع الوقوف في هذا الموقف، عن حمزة ابن

(١) انظر: إمامة الأمة، عبدالسلام ياسين، دار لبنان للطباعة والنشر، ط١/ ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م، ص٨٢.

عبدالله، أنه أخبره، عن أبيه، قال: لما اشتد برسول الله ﷺ وجعه قيل له في الصلاة، فقال: «مروا أبا بكر فليصل بالناس» قالت عائشة: إن أبا بكر رجل رقيق، إذا قرأ غلبه البكاء، قال: «مروه فيصلي» فعاودته، قال: «مروه فيصلي، إنكن صواحب يوسف»[1].

ومما يدل على ذلك مواقف كثيرة من سيرة الصحابة، وعلى وجه الخصوص سيرة سيدنا عمر بن الخطاب، فقد روي أن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه استعمل رجلًا من بني أسد على عمل، فجاء يأخذ عهده، قال: فأتى عمر رضي الله عنه ببعض ولده فقبله، قال: أتقبل هذا؟ ما قبلت ولدًا قط، فقال عمر: «فأنت بالناس أقل رحمة، هات عهدنا، لا تعمل لي عملًا أبدًا»[2].

فتدل هذه الحوادث وغيرها، على أن النبي ﷺ والصحابة الكرام، كانوا يراعون أن يكون الخليفة أو رجل الدولة رحيمًا بالمسلمين، عطوفًا عليهم، يرحم ضعيفهم، ويأخذ من قويهم الحق، وينصفهم.

٢. أثر مقصد الرحمة في تعزيز المسؤولية السياسية:

وإن لمقصد الرحمة أثره الواضح في تعزيز المسؤولية السياسية، فمما هو معلوم أن الإسلام أناط بأولي الأمر مسؤوليات عديدة، ينبغي مراعاتها، فقد قال ﷺ: «كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته»[3]، وقاسي القلب، الذي لم يتحل بصفة الرحمة لن يكون رحيمًا بالخلق، ومن ثم سيخل حتمًا بمسؤوليته السياسية التي انيطت به، ولن يعمل لأجل المسلمين الذي تولى شأنهم، وأخذ العهد منهم على إصلاح أمورهم، وإن نظرة سريعة في سيرة سيدنا عمر بن الخطاب لتبين لنا هذا الأمر بجلاء، لا التباس فيه مطلقًا فسيدنا عمر بن الخطاب كان قاسي القلب جدًّا في الجاهلية، وكانت العرب

(١) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب: أهل العلم والفضل أحق بالإمامة، ١٣٧/١.
(٢) رواه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب السير، باب ما على الوالي من أمر الجيش، ٧٢/٩.
(٣) راوه البخاري، كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن، ٥/٢.

تخافه، حتى إنه ضرب أخته وزوجها، ولكنه عندما أسلم أصبح يخاف على شاة في العراق أنها تتعثر، فيسأله الله ﷻ عن ذلك.

٣. أثر مقصد الرحمة في القتال والحرب:

إن لمقصد الرحمة آثارها الواضحة في حرب المسلمين مع عدوهم، ومع أن الموقف ليس فيه رحمة، كما يخيل للبعض إلا أن الإسلام هو دين الرحمة ومن أهم هذه الآثار:

أ. أثر مقصد الرحمة في الابتعاد عن الحرب:

مما لا شك فيه أن النبي ﷺ هو الرحمة المهداة، وقد شهد بهذا حتى أعداء المسلمين أنفسهم، ومن هنا كان النبي ﷺ أحرص ما يكون على إبعاد الناس عن الحرب والقتال، فالقتال كره عظيم كما وصفه الله ﷻ، وفيه إراقة للدماء، فمن رحمة الإسلام بالإنسانية كلها أنه كره الحرب والقتال، وهذه المواقف واضحة جليةٌ في القرآن والسنة، فالله تعالى يقول: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الأنفال:٦١] "فهذه الآية الكريمة من كتاب الله ﷻ تبرهن بشكل قاطع على حب المسلمين وإيثارهم لجانب السلم على الحرب، فمتى مال الأعداء إلى السلم رضي المسلمون به ما لم يكن وراء هذا الأمر ضياع حقوق المسلمين أو سلب إرادتهم"[1] والذي يراجع القرآن الكريم يجد أن الأصل في التعامل مع الحرب هو تجنبها، وتقديم السلم ما استطاع المسلمون ذلك، فقد جاءت كلمة السلم بمشتقاتها في القرآن الكريم مئة وأربعين مرة، بينما جاءت كلمة الحرب بمشتقاتها ست مرات فقط.

أما في سيرته ﷺ فالمواقف كثيرة في هذا وما إرساله ﷺ الرسائل

(١) الرحمة في حياة الرسول، د. راغب السرجاني، رابطة العالم الإسلامي، المركز العالمي للتعريف بالرسول ﷺ ونصرته، ط١/ ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م، ص ٢٥٦.

للملوك إلا أثر عظيم من آثار الرحمة، خصوصًا أنه ﷺ صدّر جميع رسائله بكلمة الرحمة «بسم الله الرحمن الرحيم» فمثلًا كتابه لهرقل عظيم الروم، وقد جاء في أوله: "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبدالله ورسوله، إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين"[1]. وقدأمر النبي ﷺ المسلمين بعدم تمنيهم للقاء العدو فقال: «لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية»[2]. ومما يدل على هذا أيضًا أن النبي ﷺ كان يكره اسم حرب، فقد قال: «أحب الأسماء إلى الله عبدالله، وعبدالرحمن، وأصدقها حارث، وهمام، وأقبحها حرب ومرة»[3].

وكان دائمًا يحول هذا الاسم إلى اسم أفضل منه، فهو اسم يدل على القتال والحرب، وإراقة الدماء، وعدم الرحمة بالخلق، إلا إن فرض القتال على المسلمين، فالحرب إذًا لا بد منها.

ب. أثر مقصد الرحمة على المدنيين في الحرب:

تقوم الحرب عادة ولا تفرق بين أحد، لا تفرق بين المدني والمقاتل، ولا بين الرجل والمرأة، ولا بين الحر والعبد، فالحرب دائمًا تقوم لسحق العدو، فهي تعمل لا لتخرجه من ساحة المعركة فقط، بل لتخرجه من ساحة الحياة كلها، إلا أن الإسلام برحمته العامة لم يكن كذلك قط، فهو رحيم حتى مع الأعداء، فلا يجيز الإسلام مطلقًا في الحرب التعدي على المدنيين، الذين لم يشتركوا فيها، ولا الشيوخ الكبار، ولا

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب دعاء النبي ﷺ الناس إلى الإسلام والنبوة، وأن لا يتخذ بعضهم بعضًا أربابًا من دون الله، ٤/٤٥.

(٢) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب: كان النبي ﷺ إذا لم يقاتل أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس، ٤/٥١.

(٣) رواه أبو داود، كتاب الآداب، باب في تغيير الأسماء، وقال عنه الألباني: صحيح، ٤/٢٨٧.

الأطفال أو النساء أو العجزة، ولا المتنسكين العباد، ولا العبيد الذين لا يملكون من أمرهم شيئًا، وهذا الأمر واضح في وصاياه ﷺ ووصايا صحابته للقادة، الذين كانوا يرسلونهم للحرب، فقد أوصى النبي ﷺ عبدالرحمن بن عوف، فقال له: «اغزوا جميعًا في سبيل الله، فقاتلوا من كفر بالله، لا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدًا، فهذا عهد الله وسيرة نبيه ﷺ»[(١)]، وفي رواية ابن عباس ما يدل على أن هذه الوصية كانت دأبه ﷺ كلما بعث سرية أو أرسل جيشًا لملاقاة العدو، عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ كان إذا بعث جيشًا، وفي رواية ابن أبي أويس قال: عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا بعث جيوشه، قال: «اخرجوا باسم الله تقاتلون في سبيل الله من كفر بالله، لا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تغلوا، ولا تقتلوا الولدان، ولا أصحاب الصوامع»[(٢)]. وكان النبي ﷺ ينهى عن قتل النساء عن نافع أن رسول الله ﷺ، رأى في بعض مغازيه امرأة مقتولة، فأنكر ذلك، ونهى عن قتل النساء، والصبيان[(٣)].

ج. أثر مقصد الرحمة على الأسرى في الحرب:

إن الإسلام حث على الرحمة حتى مع أسرى العدو، الذين كانوا منذ قليل يقاتلون المسلمين، ويقتلون فيهم، ونهى عن تعذيبهم أو تجويعهم، كما نهى عن التمثيل فيهم أو تقطيع أعضائهم، فقد قال النبي ﷺ «فكوا العاني، يعني: الأسير، وأطعموا الجائع، وعودوا المريض»[(٤)].

هذا الأمر -الرحمة مع الأسرى- كان منهجه ﷺ، ففي غزوة بدر الكبرى، وهي أولى معارك المسلمين، وقد لقي المسلمون ما لقوا من تعذيب وتهجير من قبل المشركين، ولما استشار النبي ﷺ بشأنهم،

(١) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الفتن والملاحم، ٥٨٢/٤.
(٢) رواه أحمد، من مسند بني هاشم، مسند عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب، ٤٦١/٤.
(٣) رواه مالك، كتاب الجهاد، النهي عن قتل النساء، والصبيان في الغزو، ٦٣٥/٣.
(٤) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب فكاك الأسير، ٦٨/٤.

أخذ برأي أبي بكر، لأنه أرحم من رأي عمر ﷺ، إلى غيرها من المواقف والأحداث الكثيرة، التي تبرهن بما لا يدع مجالاً للشك: أن لمقصد الرحمة آثاره الواضحة في مجال الحكم والسياسية، هذه الرحمة طبقها النبي ﷺ وصحابته الكرام من بعده، فلا بد أن تأخذ بعين الحسبان في عصرنا الحاضر.

المطلب الثاني
أثر مقصد الرحمة في الحياة الاقتصادية

إن الاقتصاديات العالمية اليوم لا تعد القيم ولا الأخلاق في تعاملاتها مطلقًا، وتتميز بالنفعية (البراغماتية) البحتة، والبحث عن المصلحة دون أي اعتبار لوسائل الوصول إليها، أكانت أخلاقية أم لم تكن؟ إلا أن الاقتصاد الإسلامي يتميز عن بقية الاقتصادات العالمية بأنه اقتصاد القيم والأخلاق، التي لم يحد عنها في كل تشريعاته حتى المبنية منها على المصلحية كالتعاملات الاقتصادية، ومن أجلّ ما راعاه الإسلام في تشريعاته وفي جانب الاقتصاد أيضًا وكان له حضوره البارز خلق الرحمة، كيف ذاك والشريعة كلها مبنية على الرحمة في أصولها وفي فروعها.

ومن أعظم التطبيقات العملية التي يتبين فيها رحمة الإسلام بالناس عمومًا في الجانب الاقتصادي هو تحريمه الربا، وجعله من الكبائر والمتأمل في تحريم الربا وتغليظ الحكم الشرعي فيه، وينظر في الوقت إلى عالمنا المعاصر وظروف الاقتصاديات المعاصرة يكتشف رحمة الله ﷻ ورسوله بالمسلمين بل بالبشرية جمعاء، ذلك لأن الربا يعتبر من أكبر المخاطر التي تهدد الاقتصاديات العالمية بشهادات كثيرة من علماء الغرب أنفسهم[1].

(١) انظر: التوجيهات النبوية ومعالم الرحمة في الاقتصاد والمعاملات، د. فارس مسدود، مجلة الاقتصاد الإسلامي العالمية، يونيو، ٢٠١٥.

وكذلك من أجل التطبيقات التي علمنا إياها رسول الله ﷺ التي يتبين بها رحمة الرسول ﷺ بأمته توجيهه ﷺ أمته للعمل وعدم الإتكال أو التواكل أو التسول، فإنه ﷺ يعلم أن الأمة التي لا تعمل ولا تجتهد أمة زائلة ومسيطر عليها، والأحاديث كثير في الحث على العمل والاجتهاد في الكسب منها مثلًا: «ما أكل أحد منكم طعاما أحب إلى الله ﷻ من عمل يديه»[1] وقال رسول الله ﷺ: «لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره، خير له من أن يسأل أحدا، فيعطيه أو يمنعه»[2] بل إن الإسلام جعل العمل عبادة لله ﷻ إن نوى به المسلم نية حسنة، إلى غيرها من التطبيقات الكثيرة التي تدل على رحمة الإسلام بالناس جميعا، ومن التطبيقات الجليلة التي يضيق المقام عن ذكرها وهي ركن من أركان الإسلام الزكاة، وكذلك هناك الأوقاف الإسلامية وغيرها الكثير.

أولًا: التأصيل الشرعي للرحمة في الاقتصاد الإسلامي:

١. من القرآن الكريم:

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الإنبياء] ومن مقتضيات الرحمة تحقيق المصلحة للعباد بجلب المنافع لهم ودرء المفاسد عنهم، وهذا ما قاله الإمام العز بن عبدالسلام[3]: "الشريعة كلها مصالح: إما درء مفاسد أو جلب مصالح، فإذا سمعت الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة:١٠٤]؛ فتأمل وصيته بعد ندائه، فلا تجد إلا خيرًا يحثك عليه

(١) رواه أحمد، مسند الشاميين، حديث المقدام بن معدي كرب الكندي أبي كريمة، ٤١٨/٢٨.
(٢) رواه البخاري، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده، ٥٧/٣.
(٣) عبدالعزيز بن عبدالسلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقيّ، عز الدين الملقب بسلطان العلماء، فقيه شافعيّ ولد ونشأ في دمشق تولى الخطابة والتدريس بزاوية الغزالي، ثم الخطابة بالجامع الأموي، ثم نفي إلى مصر، وتوفي بالقاهرة من كتبه التفسير الكبير وقواعد الأحكام في إصلاح الأنام وغيرها الكثير، انظر: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، =
= عبدالحي بن أحمد العَكري الحنبلي، حققه: محمود الأرناؤوط، خرج أحاديثه: عبدالقادر الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق - بيروت، ط١/ ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، ٥٢٢/٧، الأعلام، الزركلي، ٢١/٤.

أو شرًّا يزجرك عنه، أو جمعًا بين الحث والزجر، وقد أبان في كتابه ما في بعض الأحكام من المفاسد حثًّا على اجتناب المفاسد وما في بعض الأحكام من المصالح حثًّا على إتيان المصالح"[1] يقول الإمام مجاهد[2] في تبيان الرحمة في هذه الآية: "من آمن بالله ورسوله تمت له الرحمة في الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن بالله ورسوله عوفي مما كان يصيب الأمم في عاجل الدنيا من العذاب من الخسف والمسخ والقذف فذلك الرحمة في الدنيا"[3].

ومن أجل الرحمة وأعظمها: الرحمة في الاقتصاد لأنه عصب الحياة، والقلب الذي تسير به الدنيا، وكذلك من تأصيلات مقصد الرحمة في الاقتصاد في القرآن الكريم التطبيقات الكثيرة، التي ذكرنا بعضًا منها، والتي ذكرت جمعيها في القرآن الكريم، والتي تدل على رحمة الإسلام بالمسلمين بل بالناس كافة.

٢. من السنة النبوية:

قوله ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا أهل الأرض يرحمكم أهل السماء»[4] "فقد جعل النبي ﷺ الرحمة شرطًا لنيل رحمة الله ﷻ، فهي قيمة من قيم الإسلام، ومن هنا فقد أوجب الإسلام الرحمة بالخلق، فلا يجعل التاجر أكبر همه وغاية سعيه الحصول على أكبر قدر من الربح لخزائنه أو رصيده في المصرف، وإن كان ذلك على حساب جهود الناس"[5]،

(١) قواعد الأحكام في مصالح الأنام، عز الدين عبدالعزيز بن عبدالسلام، راجعه وعلق عليه: طه عبدالرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية – القاهرة، طبعة: جديدة مضبوطة منقحة، ١٤١٤هـ-١٩٩١م، ١/١١.

(٢) مجاهد بن جبر، أبو الحجاج المكيّ، مولى بني مخزوم، تابعي، مفسر من أهل مكة، أخذ التفسير عن ابن عباس، قرأه عليه ثلاث مرات، يقف عند كل آية يسأله، فيم نزلت وكيف كانت؟ وتنقل في الأسفار، واستقر في الكوفة مات سنة، ١٠٤ هـ، انظر: الأعلام، ٥/٣٧٨.

(٣) تفسير مجاهد، مجاهد بن جبر التابعي المكي، المحقق: الدكتور محمد عبدالسلام أبو النيل، دار الفكر الإسلامي الحديثة، مصر، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ – ١٩٨٩م، ص ٤٧٦.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) معالم الرحمة في المعاملات المالية، د. محمد محمود طلافحة، من أبحاث المؤتمر الدولي، نبي الرحمة ﷺ، المنعقد في ٢٥، شوال، ١٤٣١هـ- ٤ أكتوبر، ٢٠١٠م، ص ٩٨٦.

ويقول ﷺ: «رحم الله رجلًا سمحًا إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى»[1]، فقد "رتب المحبة عليه ليدل على السهولة والتسامح في التعامل سبب لاستحقاق المحبة، ولكونه أهلًا للرحمة، وفيه فضل المسامحة وعدم احتقار شيء من أعمال الخير، فلعلها تكون سببا لمحبة الله، التي هي سبب للسعادة الأبدية"[2].

إلى غيرها من الآيات والأحاديث، التي تؤصل لمقصد الرحمة في الحياة الاقتصادية، كما أن هناك تطبيقات كثيرة في السنة النبوية الاسلامي تدلل على هذا المقصد العظيم من الناحية الاقتصادية وما الكفارات بأنواعها إلى أحد هذه التطبيقات الكثيرة.

ثانيًا: أثر مقصد الرحمة في السلوك الاقتصادي للمسلم:

١. أثر خلق الرحمة على السلوك الاقتصادى للمسلم مع نفسه:

إن المسلم الذي يتحلى بخصلة الرحمة يشعر براحة في القلب وسكينة، وحسن التوكل على الله، وهذا يدفعه إلى الالتزام بأحكام ومبادئ الشريعة الإسلامية في معاملاته المالية والاقتصادية التى هى رحمة، ويكون سلوكه الاقتصادى متأثرًا بهذه القيمة العظيمة، ومن أهم آثار هذا المقصد العظيم على المسلم ما يلى:

- الإيمان بأن الرزق مقدر من الله ﷻ، وعليه أن يأخذ بالأسباب المشروعة، ويتجنب غير المشروعة منها، ويؤمن بأن الغاية من الكسب هو التقوية على طاعة الله وأن يرضى ويقنع بما قدره الله له، وهذا رحمة.

(١) رواه البخاري، كتاب البيوع، باب السهولة والسماحة في الشراء والبيع، ومن طلب حقا فليطلبه في عفاف، ٣/٥٧.

(٢) شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، محمد بن عبدالباقي بن يوسف الزرقاني، تحقيق: طه عبدالرءوف سعد، مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م، ٣/٥١٢.

- أن لا يشق المسلم على نفسه، ولا يحملها ما لا تطيق، وذلك بالهرولة للحصول عن مزيد من الكسب وتكون الدنيا أكبر همه ومصدر شقائه، إن عدم تحميل نفسه ما لا يطيق رحمة.
- أن يحقق المسلم التوازن في حياته التعبدية والاجتماعية والاقتصادية، متأسيًا بوصية رسول الله ﷺ: «إن لربك عليك حقًا، وإن لنفسك عليك حقًّا، وإن لأهلك عليك حقًّا، فأعط كل ذى حق حقه»[1]، وهذا التوازن رحمة.

٢. أثر خلق الرحمة في السلوك الاقتصادى للمسلم مع أهله:

إن التزام أفراد الأسرة الزوج والزوجة والأولاد بخُلُق الرحمة فيما بينهم يحقق السكينة والمودة والمحبة، ويجب أن يكون ذلك شاملًا كل نواحي الحياة المعنوية والمادية، ولقد تبين أن من أسباب الشقاء والتعاسة والقلق في البيت المسلم هو السلوك غير السوي في المعاملات المالية والاقتصادية، وذلك عندما تطغى الماديات على الروحانيات، ولا يمكن تجنب ذلك الطغيان إلا من خلال التربية الروحية، التي تقود إلى التراحم الفعال بينهم، ومن نماذج السلوك الاقتصادي المشروع والمنشود للمسلم في بيته ما يلي:

- الرشد في تدبير شئون البيت، فهذا رحمة وسكينة وأمن، ومن الموجبات الشرعية لذلك تطبيق سلوك الشورى في إعداد ميزانية البيت، لأنها مسبار الود والحب والتربية السلوكية السليمة للأولاد.
- إعطاء الزوجة زكاة مالها لزوجها عند الحاجة من خلق الرحمة، لأن ذلك من قبيل الأقربون أولى بالمعروف، وهذا يقوي من رابطة التعاون على البر والتقوى.

(١) رواه البخاري، كتاب الصوم، باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع، ولم ير عليه قضاء إذا كان أوفق له، ٣/٣٨.

- المتابعة والتقويم المستمر والمحاسبة على الكسب والإنفاق الحلال الطيب والادخار ليوم الحاجة من مسئولية أفراد الأسرة، وإذا ما حدث انحراف يجب سرعة علاجه، فهذا من قبيل الدين النصيحة من خُلُق الرحمة.

٣. أثر خلق الرحمة في السلوك الاقتصادي للمسلم مع المؤمنين:

يقول الله تبارك وتعالى في تصوير سلوكيات المؤمن مع أخيه المؤمن: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الفتح:٢٩]، ويستنبط من هذه الآية أن من سمات الجماعة المؤمنة الرحمة، ولقد أكد رسول الله ﷺ على هذا في أقواله وأفعاله، وكذا فعل الصحابة الكرام، ومن صور ترجمة هذه الآية في الواقع الاقتصادي للمسلم مع أخيه المسلم ما يلي:

- تطبيق أسس ونظم التكافل الاقتصادي بين أعضاء الجماعة المؤمنة، فهذا رحمة وألفة، وأساليب ذلك الزكاة والصدقات والقرض الحسن والتبرع والهبة والوصايا والوقف وما في حكم ذلك.
- السماحة في المعاملات لأنها تؤدي إلى توثيق الحب والتيسير، فالتسامح في المعاملات رحمة.
- الرحمة بالمدينين، وإعطائهم مهلة لوفاء ديونهم، ودون أخذ أي فوائد عليها فيه رحمة بالمؤمنين وبالمجتمع الإسلامي عامة.

٤. أثر خلق الرحمة في السلوك الاقتصادي للمسلم مع الوطن:

من خلق المسلم القيام بالوفاء بحقوق المجتمع التي شرعها الله، وأن يكون رحيمًا بما فيه من مخلوقات ومن السلوكيات الاقتصادية للمسلم تجاه وطنه على سبيل المثال ما يلي:

- المحافظة على طهارة ونظافة المجتمع من التلوث الذي يسبب الأضرار، فلا ضرر ولا ضرار، وهذا رحمة بنفسه وأهله أولًا ورحمة بمن يسكن على أرض الوطن، بشرًا كانوا أم من غيرهم.
- تجنب المعاملات غير المشروعة، التى تسبب الفساد في المجتمع، ومنها على سبيل المثال: الرشوة والاحتكار والغش والاحتيال والسرقة وكافة صور الاعتداء على المال العام والخاص، وهذا فيه رحمة للوطن، فإن هذه الأشياء تعيق تقدم المجتمع ومن ثم تعيق تقدم الوطن.
- إعطاء الزكاة والضرائب للدولة، فإن هذا فيه رحمة بالوطن عامة، فإن اقتصاد الدولة المعاصرة يقوم على عدد من الموارد، ولولاها لم تستطع هذه الدول أن تقوم بواجباتها تجاه الأفراد والمجتمع، وهذا رحمة بالوطن والمواطن.

المطلب الثالث
أثر مقصد الرحمة في تعامل المسلمين مع غيرهم

لم يشهد التاريخ فاتحًا مثل المسلمين، لقد شهد بهذا التاريخ نفسه، كما شهد به أعداء المسلمين قبل أصدقائهم، فقد شملت رحمة الإسلام في بوتقتها حتى الذين لم يؤمنوا به، ونظرة المسلمين إلى غيرهم أنهم قوم قد ضلو الطريق، وأنه يجب على أخوهم الأكبر المسلم الذي جاءه وحي من الله علمه الطريق الصحيح أن يعلم ويرشد غيره بالحكمة والموعظة الحسنة، وبالرفق واللين إلى هذا الطريق المستقيم، هذه النظرة التي ملؤها رحمة، جعلت آلافًا من غير المسلمين يدخلون في الإسلام.

وفي حياة النبي ﷺ مواقف عظيمة جدًّا تشهد على هذا، فحينما ذهب إلى الطائف ولم يلق منهم معاملة حسنة خيره ملك الجبال أن يطبق

عليهم الأخشبين، ولكن رحمته ﷺ بهؤلاء الكفار، جعلت منهم بعد حين مسلمين مدافعين عن هذا الدين، ومن أهم آثار هذا المقصد العظيم على غير المسلمين:

١. حسن معاملة المعاهدين والذميين، وجعل لهم حقوقًا، فقد قال النبي ﷺ: «ألا من ظلم معاهدًا، أو انتقصه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة»[(١)].

٢. الوصية بالجيران، حتى ولو كانوا من غير المسلمين، يقول القرطبي: "الوصية بالجار مأمور بها مندوب إليها، مسلمًا كان أو كافرًا، وهو الصحيح، والإحسان قد يكون بمعنى المواساة، وقد يكون بمعنى حسن العشرة وكف الأذى والمحاماة دونه"[(٢)].

٣. عدم إكراه أحد من المشركين على الدخول في الإسلام، وهذا من رحمة الإسلام، قال تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ [البقرة:٢٥٦]، فدين الإسلام بيّن واضح جلي، دلائله وبراهينه لا يحتاج إلى أن يكره أحدًا على الدخول فيه، فمن هداه الله للإسلام وشرح صدره، ونور بصيرته دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره، فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرهًا مقسورًا.

٤. ومن صور سماحة الإسلام مع غير المسلمين، أنه أوجب على المسلمين سلوك العدل في التعامل مع غيرهم؛ ولم يجعل عدم دخولهم في الإسلام سببًا في ظلمهم أو خيانتهم، كما قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٨﴾ [المائدة:٨].

(١) رواه أبو داود، كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارات، ٣/ ١٧٠، وقال عنه الألباني: صحيح.
(٢) تفسير القرطبي، مرجع سابق، ٥/ ١٨٤.

إلى غيرها كثير من آثار الرحمة في تعامل المسلمين مع الكفار، هذه الآثار وغيرها الكثير تبرهن بما لا يدع مجالًا للشك أن الإسلام كان رحيمًا حتى مع الذين لم يؤمنوا به دينًا منزلًا من رب العالمين، فهل يصح أن يقال: إن الدين الإسلامي هو دين إقصائي؟؛ أو أنه دين يدعو إلى التطرف، أو أنه يزرع الكراهية في نفوس أتباعه؛ فما تلك الادعاءات إلا زورًا وكذبًا وبهتانًا على الدين العظيم، الذي ارتضاه الله ﷻ للبشرية جمعاء، وهل بعد هذه الرحمة من رحمة أخرى في الأديان السابقة؟.

المطلب الرابع
أثر مقصد الرحمة في دائرة الإفتاء

لقد ذكر الفقهاء في كتبهم شروطًا للمفتي، وكذلك للمستفتي، وبسطوا هذا الأمر في كتبهم، ومما ذكروا من شروط المفتي: الإسلام، والتكليف والعدالة في الأقوال والأفعال. يقول الإمام النووي: "شرط المفتي كونه مكلفًا مسلمًا ثقة مأمونًا متنزهًا عن أسباب الفسق، وخوارم المروءة، فقيه النفس، سليم الذهن، رصين الفكر، صحيح التصرف والاستنباط، متيقظًا"[1]، ومن أهم ما يجب على المفتي أن يتحلى به من الصفات الخلقية هو صفة الرحمة، فيحاول ما استطاع أن تكون فتواه تجلب التيسير للناس، وتجنبهم الحرج والضيق، وذلك ضمن إطار الشريعة الإسلامية، وقواعدها ومقاصدها وضوابطها، ويحاول أن يتمثل بقول النبي ﷺ: «إن هذا الدين يسر»[2]. وبفعل النبي ﷺ فيما روت سيدتنا عائشة رضي الله عنها: «ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما، ما لم يكن إثمًا»[3]. وإذا كان الأمر

(١) آداب الفتوى والمفتي والمستفتي، يحيى بن شرف النووي، المحقق: بسام عبدالوهاب الجابي، دار الفكر – دمشق، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨، ص ١٩.
(٢) رواه النسائي، كتاب الإيمان وشرائعه، الدين يسر، ١٢١/٨، وقال عنه الألباني: صحيح.
(٣) رواه البخاري، كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ، ١٨٩/٤.

في دائرة الاختلاف فلا يحاول أن يجبر الطرف الآخر على رأيه، حتى ولو كان يعتقد خطأ الطرف الآخر للأدلة التي ظهرت عنده، يقول ابن تيمية: "فهذه مسائل الاجتهاد التي تنازع فيها السلف والأئمة، فكل منهم أقر الآخر على اجتهاده من كان فيها أصاب الحق فله أجران، ومن كان قد اجتهد فأخطأ فله أجر، وخطؤه مغفور له، فمن ترجح عنده تقليد الشافعي لم ينكر على من ترجح عنده تقليد مالك، ومن ترجح عنده تقليد أحمد لم ينكر على من ترجح عنده تقليد الشافعي، ونحو ذلك"[١].

وهناك تطبيقات كثيرة في فتاوى المتقدمين، راعوا فيها الرحمة للمسلم، وللمستفتي، مثلًا:

١. طلاق الغضبان، فقد ذهب جماهير العلماء من المالكية[٢] والشافعية[٣] والحنابلة[٤] إلى وقوع طلاق الغضبان، إلا أن الإمام ابن القيم ذهب إلى عدم وقوعه على تفصيل عنده في درجات الطلاق. يقول ابن القيم رحمه الله: "والأدلة الشرعية تدل على عدم نفوذ طلاقه وعتقه وعقوده، التي يعتبر فيها الاختيار والرضا، وهو فرع من الاغلاق، كما فسره به الأئمة"[٥].

٢. ومن التطبيقات أيضًا ما أفتى به الشوكاني[٦] بجواز الجمع

(١) الفتاوى، مرجع سابق، ٤/٤٤٩.
(٢) انظر: مثلًا: حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي المالكي، دار الفكر، دون طبعة ودون تاريخ، ٢/٣٦٦.
(٣) انظر: إعانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين، أبو بكر (المشهور بالبكري) دار الفكر للطباعة والنشر والتوريع، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م، ص ٤/٩.
(٤) مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى، مصطفى بن سعد بن عبده، المكتب الإسلامي، الطبعة: الثانية، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م، ٥/٣٢٢.
(٥) إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان، ابن قيم الجوزية، المحقق: محمد عفيفي، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان/ مكتبة فرقد الخاني، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ص ٣٩.
(٦) هو الإمام خاتمة محدثي المشرق وأثريه، العلامة النظار الجهبذ القاضي محمد بن عليّ الشوكاني ثم الصنعاني ولد رحمه الله بصنعاء اليمن، وبها نشأ وقرأ القرآن، وجد واجتهد في الطلب، =

بجميع أشكاله لصاحب السلس والمستحاضة، يقول: "ولهما -المستحاضة وصاحب السلس- جمع التقديم والتأخير والمشاركة بوضوء واحد"[1].

إلى غيرها الكثير من التطبيقات التي راعى فيها العلماء الرحمة للمستفتي، والتخفيف عنه، ومن هنا يظهر أهم آثار مقصد الرحمة في دائرة الإفتاء، وهي:

١. يجب على المفتي أن يتحلى بالأخلاق الحميدة، فهو في مقام عظيم، ومن أهم ما يجب أن يتحلى به الذي ينتصب للفتوى الرحمة بالخلق والمستفتين.

٢. يجب أن يراعي المفتي في فتاويه مقصد الرحمة في المستفتين، ضمن إطار أدلة الشريعة الإسلامية وضوابطها، ومقاصدها التي راعتها.

٣. يجب على المفتي أن لا يأخذ فتواه من مذهب واحد محاولًا إجبار الناس على هذا المذهب، ويجب عليه الاطلاع على ما قاله أئمة المذاهب الأخرى في المسألة المراد الإفتاء فيها، محاولًا التوصل إلى فتوى تجمع بين قوة الدليل والرحمة والتخفيف بالخلق.

= ومن أكبر مصنفاته في السنة وعلومها: نيل الأوطار في شرح منتقى الأخبار في ثمان مجلدات، وهو من خير وأجمع ما ألفه المتأخرون في السنة وفقهها، وله أيضًا البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، والدرر البهية في المسائل - الفقهية وفتح القدير في التفسير، وكانت وفاته رحمه الله سنة ١٢٥٥هـ، انظر: فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، محمد عَبْد الحَيّ بن محمد الحسني الإدريسي، المعروف بعبدالحي الكتاني المحقق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي - بيروت، ط٢/ ١٩٨٢، ٢/ ١٠٨٢.

(١) السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار، الشوكاني، دار ابن حزم، الطبعة الأولى، ص ٩٣.

الخاتمة

ما أحوج الناس اليوم وقد تكالب الأعداء على أمتنا الإسلامية إلى التحلي بهذا الخلق العظيم خلق الرحمة، فإنا إن تحلينا به فسنستشعر معاني الجسد الواحد، الذي إذا مرض تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

وفي نهاية البحث سأكتب أهم النتائج التي توصل إليها الباحث:

١. إن معرفة مقاصد الشريعة له أهمية كبيرة جدًّا في شتى مناحي حياة المسلم.

٢. إن لمقصد الرحمة أثره الواضح في الناحية السياسية، فله أثره في اختيار الحاكم وفي تعزيز مسؤليته التي وكلت إليه، كما له أثره في اختيار رجال الدولة، فعلى المعنيين باختيارهم أن يراعوا أن يكون الموكل إليه مسؤولية سياسية موصوف بخلق الرحمة.

٣. إن مقصد الرحمة له أثره الواضح في الحرب، مع أن الموقف عادة لا يكون به رحمة، إلا أن الإسلام راعاه حتى في أحكام الحرب مع الأعداء فلا يجوز قتل المدنيين، ولا النساء والأطفال بأي حال من الأحوال.

٤. إن تفعيل خلق الرحمة في المعاملات الاقتصادية على مستوى الفرد، وعلى مستوى الأسرة، وعلى مستوى الوحدات الاقتصادية والاجتماعية والحكومية يقود ذلك إلى وجود المجتمع المتراحم،

وإلى وجود الحكومة الرحيمة بالرعية، ويكون من ثمار ذلك الخير والرفاهية والبركات.

٥. إن الإسلام قد راعى هذا المقصد العظيم حتى مع غير المسلمين، فقد حرَّم الإسلام الاعتداء على المستأمنين، بل وجعل لهم حقوقًا يجب على الدولة الإسلامية الوفاء بها تجاههم.

٦. يجب على المفتي أن يتحلى بجميع صفات الأخلاق الحميدة، لكونه في موقع عظيم، ومن أهم ما يجب أن يتحلى به المفتى خلق الرحمة.

٧. يجب على المفتي أن يراعي في فتاويه مقصد الرحمة بالمسلمين ضمن إطار الشريعة الإسلامية وأدلتها المعروفة.

أهم التوصيات:

١. إن الأخلاق الإسلامية مرتبطة بالواقع الإسلامي، ولا مجال لانفكاك الأخلاق عن الواقع العملي للمسلمين، وبناء عليه يوصي الباحث بإقامة مؤتمر يهتم بربط الأخلاق الإسلامية بواقع الأمة الإسلامية.

٢. إن أهم أسباب ضعف المسلمين وتفككهم، هو الابتعاد عن الأخلاق الإسلامية، التي قررها الكتاب والسنة، وبناء عليه يوصي الباحث بإقامة ندوة، تتعلق بأسباب ضعف المسلمين، وطرق معالجتها.

٣. إن الحياة الإسلامية السياسية ليست بعيدة عن الأخلاق كما يتصور البعض، وبذلك يوصي الباحث إلى دراسات أكاديمية وبحوث تتعلق بإبراز الأخلاق الإسلامية وتعلقها بالسياسة الشرعية.

فهرس المصادر والمراجع:

- **القرآن الكريم:**
- **كتب التفسير:**

١. التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، سنة، ١٩٨٤، ١٦٩/١.

٢. تفسير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، المحقق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

٣. تفسير مجاهد، مجاهد بن جبر التابعي المكي، المحقق: الدكتور محمد عبدالسلام أبو النيل، دار الفكر الإسلامي الحديثة، مصر، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.

- **كتب الحديث والشروح:**

١. سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، تح: محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، د. ط.

٢. سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة الترمذي، أبو عيسى، تح: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي - بيروت، ١٩٩٨م.

٣. السنن الصغرى، أبو عبدالرحمن أحمد بن شعيب النسائي، تح: عبدالفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب، ط٢/ ١٤٠٦-١٩٨٦.

٤. السنن الكبرى، أحمد بن الحسين أبو بكر البيهقي، تح: محمد عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنات، ط١/، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.

٥. شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، محمد بن عبدالباقي بن

يوسف الزرقاني، تحقيق: طه عبدالرءوف سعد، مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م.

٦. صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تح: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبدالباقي) ط١/ ١٤٢٢هـ.

٧. عون المعبود شرح سنن أبي داود، ومعه حاشية ابن القيم: تهذيب سنن أبي داود وإيضاح علله ومشكلاته، محمد أشرف بن أمير بن علي بن حيدر، أبو عبدالرحمن، شرف الحق، الصديقي، العظيم آبادي، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٥هـ.

٨. فتح الباري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، دار المعرفة – بيروت، ١٣٧٩، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبدالباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلامة: عبدالعزيز بن عبدالله بن باز.

٩. المستدرك على الصحيحين، أبو عبدالله الحاكم محمد بن عبدالله النيسابوري، تح: مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١/ ١٤١١ – ١٩٩٠.

١٠. مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل، تح: شعيب الأرناؤوط – عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبدالله بن عبدالمحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط١/ ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.

١١. موطأ الإمام مالك، مالك بن أنس بن مالك، صححه ورقمه وخرج أحاديثه وعلق عليه: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان.

١٢. النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، تح: خليل مأمون شيحا، بيروت – لبنان، دار المعرفة، ط ١/ ٢٠٠١م.

- **كتب الفقه:**

١. إعانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين، أبو بكر (المشهور بالبكري) دار الفكر للطباعة والنشر والتوريع، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

٢. إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان، ابن قيم الجوزية، المحقق: محمد عفيفي، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان/ مكتبة فرقد الخاني، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

٣. حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي المالكي، دار الفكر، بدون طبعة وبدون تاريخ.

٤. السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار، الشوكاني، دار ابن حزم، الطبعة الأولى.

٥. مجموع الفتاوى، أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية الحراني تح: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.

٦. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، الفيومي، أحمد بن محمد المقري، بيروت - لبنان، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٩٩٤م

٧. مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى، مصطفى بن سعد بن عبده، المكتب الإسلامي، الطبعة: الثانية، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

- **كتب الأصول والمقاصد:**

١. أصول الفقه الإسلامي، د. وهبة الزحيلي، دار الفكر بدمشق، ط٢/ ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

٢. قواعد الأحكام في مصالح الأنام، عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام، راجعه وعلق عليه: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة، طبعة: جديدة مضبوطة منقحة، ١٤١٤هـ - ١٩٩١م.

٣. قواعد المقاصد عند الشاطبي، عبدالرحمن الكيلاني، دار الفكر - دمشق، ط١/ ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
٤. مقاصد الشريعة الإسلامية، محمد الطاهر بن عاشور، تحقيق ودراسة محمد الطاهر الميساوي، عمان-الأردن، دار النفائس، ط ٢/٢٠٠١م.
٥. مقاصد الشريعة الإسلامية، زين الدين بن محمد الرماني، دار الغيث للنشر والتوزيع، ط١/١٤١٥هـ.
٦. مقاصد الشريعة عند ابن تيمية، يوسف أحمد محمد البدوي، دار النفائس، الأردن، ط١/٢٠٠٠م.
٧. المستصفى، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي تح: محمد عبدالسلام عبدالشافي، دار الكتب العلمية، ط١/ ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.
٨. الموافقات، الشاطبي، تح: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، ط١/ ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.
٩. نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، أحمد الريسوني، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، ط٢/ ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

- **كتب التاريخ والتراجم:**

١. الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، ط/١٥ - أيار/ مايو ٢٠٠٢م.
٢. تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام، شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي تح: الدكتور بشار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط١/ ٢٠٠٣.
٣. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبدالحي بن أحمد العَكري الحنبلي، حققه: محمود الأرناؤوط، خرج أحاديثه: عبدالقادر الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق - بيروت، ط١/ ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٤. شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، محمد مخلوف، علق عليه: عبدالمجيد خيالي، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١/ ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.
٥. فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، محمد عَبْد الحَيّ بن محمد الحسني الإدريسي، المعروف بعبدالحي الكتاني المحقق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي - بيروت، ط٢/ ١٩٨٢.
٦. نيل الابتهاج بتطريز الديباج، أحمد بابا التنبكتي، إشراف وتقديم: عبدالحميد عبدالله الهرامة، وضع هوامشه طلاب من كلية الدعوة الإسلامية، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا.
٧. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد ابن محمد بن خلكان البرمكي تح: إحسان عباس، دار صادر - بيروت، ط ١، ١٩٧١.

- **كتب اللغة والمعاجم:**

١. تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد بن محمّد، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى الزَّبيدي، ت: مجموعة من المحققين، دار الهداية، د. ط.
٢. لسان العرب، ابن منظور، تصحيح أمين عبدالوهاب، ومحمد الصادق، بيروت - لبنان، ط ٣/ ١٩٩٩م.
٣. المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان الداوودي، دار القلم الدار الشامية، دمشق بيروت، ط١/١٤١٢هـ.

- **كتب أخرى:**

١. إمامة الأمة، عبدالسلام ياسين، دار لبنان للطباعة والنشر، ط١/١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م.

٢. آداب الفتوى والمفتي والمستفتي، يحيى بن شرف النووي، المحقق: بسام عبدالوهاب الجابي، دار الفكر - دمشق، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨.
٣. الرحمة في حياة الرسول، د. راغب السرجاني، رابطة العالم الإسلامي، المركز العالمي للتعريف بالرسول ﷺ ونصرته، ط١/ ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م.
٤. فقه الزكاة، الدكتور يوسف القرضاوي، بيروت- لبنان، مؤسسة الرسالة، ط ٢٤، ٢٠٠٠م.

- **المجلات والدوريات:**

١. التوجيهات النبوية ومعالم الرحمة في الاقتصاد والمعاملات، د. فارس مسدود، مجلة الاقتصاد الإسلامي العالمية، يونيو، ٢٠١٥.
٢. معالم الرحمة في المعاملات المالية، د. محمد محمود طلافحة، من أبحاث المؤتمر الدولي، نبي الرحمة ﷺ، المنعقد في ٢٥، شوال، ١٤٣١هـ- ٤ أكتوبر، ٢٠١٠م.

والحمد لله رب العالمين.